مناظرات المعتزلة

١٧٩ — تكون علم الكلام من مناظرات المعتزلة مع خصومهم ، سواء أكانوا من المجوس والثنوية وأهل الأهواء والانحراف أم كانوا من أدل الفقه والحديث ، أم الأشاعرة والماتريدية ، فهم مركز الدائرة ، وقطب الرحى ، شغلوا الفكر الإسلامى بمناظراتهم نحو قرنين ازدحمت فيها مجالس الأمراء والوزراء والعلماء ، وتضاربت فيها الآراء ، وتجاوبت فيها أصداء الفكر الإسلامى ، وقد زين بزينة فارسية أو يونانية ، أو هندية ، وقد امتازوا فى جدلهم بميزات واختصوا بخواص جعلت لهم لوناً خاصا ، ونحلة خاصة لاتختلف فى جملتها عما دعا إليه الدين وإن تباينت طرق استنباطها ، وتخالفت مقدماتهم فى الاستنباط عن مقدمات غيرهم من جماهير الأمة الإسلامية ، وأوضح مميزاتهم فى البحث والمناظرة ما يأتى :

(أ) مجانبتهم التقليد وامتناعهم عن اتباع غيرهم من غير بحث وتنقيب ووزن للأدلة ومقايسة للأمور ، والاحترام عندهم للآراء لا للأسماء وللحقيقة لا للقائل ، ولذلك لم يقلد بعضهم بعضا . وقاعدتهم التى يسيرون عليها أن كل مؤمن مكلف بمطالب تمما يؤديه إليه اجتهاده فى أصول الدين . ولعل ذلك هو السبب فى افتراقهم إلى فرق كثيرة :

ومنها « الواصلية » وهم الذين اختاروا آراء واصل بن عطاء أظهر رجال هذا المذهب .

ومنها « الهذيلية » وهم أصحاب أبى الهذيل العلاف ، شيخ المعتزلة فى القرن الثانى .

ومنها « النظامية » وهم أتباع إبراهيم بن سيار النظام تلميذ أبى الهذيل العلاف .

ومنها « الحائطية » ، وهم أصحاب أحمد بن حائط .

ومنها « البشرية » ، وهم أصحاب بشر بن المعتمر .

ومنها « المعمرية » ، وهم أتباع معمر بن عباد السلمى .

ومنها « المزدارية » ، وهم أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى الملقب بالمزدار .

ومنها « الثمامية » ، وهم أصحاب ثمامة بن أشرس النمرى .

ومنها « الهشامية » ، وهم أصحاب هشام بن عمر الفوطى .

ومنها « الجاحظية » ، وهم أصحاب الجاحظ الأديب المشهور ، فقد كان مع أدبه عالماً معتزلياً .

ومنها « الخياطية » ، وهم أصحاب أبى الحسين الخياط .

ومنها « الجبائية » ، وهم أصحاب أبى على الجبائى أستاذ أبى الحسن الأشعرى الذى كان شيخ المعتزلة فى القرن الثالث .

ومنها « البهشمية » ، وهم أصحاب أبى هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى شيخ « الجبائية » .

١٨٠ — (ب) ومن خواصهم اعتمادهم على العقل فى إثبات العقائد ، اتخذوا من القرآن مدداً ، حتى لا يذهب بهم الشطط إلى الخروج عن جادته ، ولم تكن معرفتهم بالحديث كبيرة ، لأنهم ما كانوا يأخذون به فى العقائد ولا يحتجون به فيها .

وقد كان اعتمادهم على العقل باعثاً لهم على الأخذ من العلوم العقلية التى ترجمت فى عصرهم ، فقد ضربوا بسهم فى تلك العلوم ، ونالوا منها ما يساعدهم فى اللحن بالحجة ومقارعة الخصوم .

وقد انضم إليهم لهذا كثيرون من المتفلسفين ، إذ رأوا فى آراء المعتزلة ما يلائمهم ؛ لأنها كانت جامعة بين الروح الدينية التى تظلها ، وفكرة التنزيه التى تسيطر عليها ، والأفكار الفلسفية التى ترضى النهمة العقلية ، ولذلك كان بين رجالها كثيرون من الكتاب الممتازين والعلماء المبرزين ، والفلاسفة الفاهمين .

١٨١ — (جـ) وقد امتازوا باللسن والبيان ، فقد كان بين رجالها خطباء مصاقع ، ومناظرون قد مرسوا بالجدل ، فعرفوا أفانينه ، وخبروا طرقه ، ودرسوا كيف يصرعون الخصوم ويلوون عليهم المقاصد ، وهذا واصل بن عطاء كبيرهم ، خطيب عليم بخواطر النفوس ، حاضر البديهة ، قوى الارتجال . وهذا إبراهيم بن سيار النظام من شيوخهم ، كان ذكياً بليغاً حاد اللسان أريباً شاعراً ، وهذا أبو عثمان عمرو الجاحظ الذى يقول فيه ثابت بن قرة الصابئى : أبو عثمان الجاحظ ، خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ، ومدره المتحدثين ، إن تكلم حكى « سحبان » فى البلاغة ، وإن ناظر صارع « النظام » فى الجدل ، شيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ومسائلة أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفا ، ولا تعرض له متعرض إلا قدم له التواضع استبقاء » .

خصومة المعتزلة فى المناظرات :

١٨٢ — (١)جادل المعتزلة المجوس والثنوية والجبرية وأهل البدع . (٢)وجادلوا الفقهاء والمحدثين . (٣) وجادلوا الأشاعرة والماتريدية ، ونتكلم الآن فى جدلهم مع أهل الأهواء والبدع والكفار ، وجدلهم مع الفقهاء والمحدثين بالنسبة لخلق القرآن ، ونرجىء القول فى جدلهم مع الأشاعرة والماتريدية إلى أن يحين وقت الكلام على مذاهبهم .

جدلهم مع أهل الأهواء والكفار :

١٨٣ — قلنا : فى آخر العصر الأموى وصدر الدولة العباسية كثر الزنادقة واندس بين المسلمين من كانوا يحملون فى قلوبهم الديانات الفارسية وغيرها ، ومعها أحقاد على المسلمين ، وكانوا تارة يكشفون القناع وأحياناً كثيرة ينفثون تعاليمهم مستترين بلباس الإسلام ، متسربلين بسرباله ليدسوا السم من غير أن يشعر بهم أحد ، فلا يحترس منهم . وقد كان جلهم على ذلك النحو ، فكانوا أشد نكاية وأعظم خطراً ، لاغترار بعض الناس بهم ، فتصدى لهم المعتزلة ، وصارعوهم فى كل ميدان ظنوا أنهم يحاربون الإسلام فيه . ثم لاقوا الثنوية والدهرية البارزين غيرا لمستورين وجهاً لوجه . فقد فرق واصل أصحابه فى الأمصار لمحاربة الزنادقة فيها ؛ ودافع بنفسه ، ومن مؤلفاته كتاب « ألف مسألة » للرد على « المانوية » وهى مذهب فارسى جمع بين المسيحية والمجوسية ، وكذلك فعل خلفاؤه من بعده .

وكان جدلهم بقوة وحسن دليل ، وفصاحة وبيان وقدرة على الإقناع اكتسبوها من علومهم وممارستهم الجدال ، حتى أن بعض خصومهم من غير المسلمين كانوا يسلمون بعد مناقشتهم . ولقد قال مؤرخو المعتزلة : إن أبا الهذيل العلاف أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل من المجوس لحذقه وبراعته فى المناظرة وقوة ما يدعو إليه وضعف ما يدعون إليه .

وقد جاء فى الانتصار ما روى عن بعض هذه المناقشات ، ومنها ما يروى من أن مناقشة حصلت بين « مانوى » (١) و « معتزلى » هذا نصها :

---

(١) المانوية طائفة من المجوس ، أخذوا من المجوسية والنصرانية وقد كانوا ككل المجوس يعتقدون أن الخير إلها هو النور ، وأن الشر إلها هو الظلمة .

إن المانوية تزعم أن الحق والكذب متضادان ، وأن الصدق خير وهو من النور والكذب شر وهو من الظلمة .

قال إبراهيم النظام (تلميذ أبي الهذيل) حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه : من الكاذب ؟ قالوا : الظلمة . قال إبراهيم النظام فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب ، وقال : قد كذبت وأسأت من القائل قد كذبت ؟ فاختلطوا عند ذلك ، ولم يدروا ما يقولون ، فقال النظام : إن زعمتم أن النور هو القائل قد كذبت وأسأت فقد كذب . لأنه لم يقع الكذب منه ولا قاله ، والكذب شر ، فقد كان من النور شر ؛ وهذا هدم لقولكم . وإن قلتم إن الظلمة قالت قد كذبت وأسأت فقد صدقت ، والصدق خير ، فقد كان من الظلمة صدق وكذب وهما مختلفان خيراً وشراً على حكمكم .

ونرى من هذه المناقشة استقراء وتتبعاً ، وأخذ الطريق على المناقش حتى ينقطع .

ويحكى صاحب سرح العيون محادثة أخرى بين النظام هذا وبين صالح بن عبدالقدوس الذى كان سوفسطائياً يشك فى كل شىء ، وينكر حقائق الأشياء ، فإن صالحاً هذا قد مات له ولد . فمضى إليه أبو الهذيل العلاف ، والنظام معه ، وهو غلام حدث كالتبع له ، فرأى أبو الهذيل صديقه السوفسطائى محترقاً ، فقال له أبو الهذيل : لا أدرى لجزعك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزرع (أى أن كليهما يستمد أثره من عندية الإنسان لا من حقيقته لأنه يشك فى حقيقته) فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه ، لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك؟ قال كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يتوهم أنه كان ، قال النظام : فشك أنت فى موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن مات . وشك أيضاً فى أنه قرأ هذا الكتاب ، وإن لم يكن قد قرأه » .

وإن هذه القصة الأخيرة وأشباهها تدل على أن أولئك المعتزلة كان لهم من سعة الأفق ورحابة الصدر ما أمكنهم به أن يعقدوا مودة بينهم وبين غير المسلمين الذين يجادلونهم ، أو المنحرفين الذين أرادوا أن يقفوا انحرافهم ، وتلك أخلاق العلماء تتسع صدورهم لموادة مخالفيهم فى الاعتقاد حتى يهديهم الله سواء السبيل .

١٨٤ — ولا نترك هذا المقام من غير أن نسجل مناقشات جرت بين المعتزلة وبين الزنادقة والمرتدين ، وإليك بعضها :

مناظرة المأمون للمرتد الخراسانى :

١٨٥ — يعتبر المأمون معتزلياً ، ولذلك كان يعبر عن المعتزلة بقوله : أصحابنا ، ولهذا كانت مناظرته على منهاجهم ، وقد ارتد فى عهده خراسانى ، فحمل إليه حتى وافاه ، وجرت المناقشة الآتية :

قال المأمون : لأن استحييك بحق أحب إلى من أن أذلك بحق ، لأن أقيلك بالبراءة أحب إلى من أن أدفعك بالتهمة ، قد كنت مسلماً بعد أن كنت نصرانياً ! ، وكنت فيها أتيح وأيامك أطول ، فاستوحشت مما كنت به آنساً ، ثم لم تلبث أن رجعت عنا وكنت نافراً ، فخبرنا عن الشىء الذى أوحشك من الشىء الذى صار لك من إلفك القديم ، وأنسك الأول ، فإن وجدت عندنا دواء داءك تعالجت به ، والمريض من الأطباء يحتاج إلى المشاورة . وإن أخطأك الشفاء ونبا عنك الدواء كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة وإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة ، أو ترجع أنت فى نفسك إلى الاستبصار والثقة . وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهاد ، ولم تفرط فى الدخول فى باب الحزم .

قال المرتد : أوحشنى كثرة ما رأيت من الاختلاف بينكم .

قال المأمون : لنا اختلافان ، أحدهما كالاختلاف فى الأذان ، وتكبير الجنائز ، والاختلاف فى التشهد ، وصلاة الأعياد ، وتكبير التشريق ، ووجوه الفتيا وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تخير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذن مثنى وأقام مثنى لم يؤثر ، ومن أذن مثنى وأقام فرادى لم يحوب ، لا يتعايرون ولا يتعايبون ، أنت ترى ذلك عياناً وتشهد ذلك تبياناً ، . والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا ، مع إجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تنزيله ، ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف فى شىء من التأويلات وينبغى لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف فى تأويل ألفاظها ، ولو شاء الله أن يجعل كتبه ، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله الدنيا .

قال المرتد : أشهد أن الله واحد ، لا ند له ولا ولد ، وأن المسيح عبده ، وأن محمداً صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقاً .

محاكمة الأفشين :

١٨٦ — نثبت هنا هذه المحاكمة كما جاءت فى تاريخ ابن جرير الطبرى لأنها تصور ما كان يبيته أعداء الإسلام له ، ولأن المعتزلة هم الذين تولوها ، ولأنها فى جملتها كانت مناظرة كاشفة عن حال رجل وصل فى الدولة إلى مرتبة القائد . ومع ذلك استمر يخفى فى نفسه الكفر ولا يبديه فى قوله وإن كشف عنه عمله .

وقبل سرد المحاكمة نذكر شيئاً عن الزندقة التى سرت فى الشرق من الديار الإسلامية سراً بين الجماعات الفارسية التى أرادت الملك الفارسى ، وبين عباد الأصنام فى الشرق الذين أرادوا إحياء مبادئهم الدينية فى داخل الدولة الإسلامية ، وتضافرت الجهود من بقايا هذه الدول التى قوض الإسلام أركانها لإطفاء نوره وقد عجزوا عن إعادة ملكهم القديم عن طريق القوة ، فلم يبق إلا أن يعملوا على إضعاف قوته فى قلوب أهله ، وإحياء الديانات القديمة ونشرها بينهم ، فالفرس عملوا على نشر مبادىء « مانى » الجامعة بين مبادىء مسيحية ومبادىء مجوسية وربما بعض آراء هندية . ونشر آراء « زرادشت » التى نظمت المجوسية ، ودعت إلى القوة ومبادىء « ديصان » و « مرقيون » وغيرهما ، واتجهوا إلى إحياء مبادىء « مزدك » التى كانت ترمى إلى شيوعية الأموال والنساء ولا يكون أحد مختصاً بشىء قط ، أرادوا بذلك تخريب الدولة الإسلامية كما خرب المذهب ديار فارس عندما انتشر فيها . وقد ظهر « بابك الخرمى » يدعو إلى هذا المذهب وينشره ، وقد ظهر فى عصر المأمون ، فقاومه بالسيف ، وقاوم تفكيره بالمجادلة التى تولاها هو ومعه أصحابه من المعتزلة أمثال « محمد بن عبد الملك الزيات » و « أحمد بن أبى دؤاد » وغيرهم من كبار المعتزلة الذين كان لهم سلطان فى الدولة ، أو لم يكن لهم سلطان أمثال « بشر بن المعتمر » ، و « جعفر بن مبشر » و « الجاحظ » وغيرهم .

وأوصى المأمون ، أخاه المعتصم من بعده أن يقاتل أتباع بابك الخرمى بالسيف ، وقد نفذ المعتصم الوصية ، وجرد لبابك هذا قائداً من أعظم قواده الممتازين ، وهو الأفشين فقاتله هذا حتى قضى عليه .

ومن الغريب أن الأفشين هذا لم يكن مؤمناً ، بل أظهر الإسلام وأبطن الوثنية التى كانت دينه ودين الأكثرين من أهل سمرقند قبل الإسلام ، وقد حوكم بعد نصره ، وهذه محاكمته كما تولاها اثنان من المعتزلة الذين تمرسوا بالمناظرة ، وكشف الحجة ، وقوة الاستدلال ، وهاهى ذى المحاكمة كما جاءت فى تاريخ ابن جرير الطبرى وهذا نصها :

١٨٧ — أتى بالأفشين ولم يكن بعد فى الحبس الشديد ، فأحضر قوم من الوجوه لتبكيت الأفشين بما هو عليه ، ولم يترك من أصحاب المراتب ، وكان المناظر له محمد ابن عبد الملك الزيات ، وكان الذين أحضروا « المازيار » صاحب « طبرستان » ، و « الموبذ » (١) و « المرزبان بن تركش » وهو أحد ملوك السغد (٢) ورجلان من أهل السغد فدعا عبد الملك بالرجلين وعليهما ثياب رثة فقال لهما محمد بن عبد الملك : ما شأنكما ؟ فكشفا عن ظهورهما ، وهى عارية من اللحم .

فقال محمد بن عبد الملك للأفشين : تعرف هذين ؟

قال الأفشين : نعم هذا مؤذن وهذا إمام بنيا مسجداً بأشروسنة ، فضربت كل واحد منهما ألف سوط ، وذلك أن بينى وبين ملك السغد عهداً أن أترك كل قوم على دينهم . وما هم عليه ، فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم « أدل شرو سنة » فأخرجا الأصنام واتخذاه مسجداً ، فضربتهما على هذا ألفا لتعديهما ومنعهما القوم من بيعتهم .

فقال « محمد » : ما كتاب عندك زينته بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله ؟

قال الأفشين : هذا كتاب ورثته عن أبى ، فيه أدب من آداب العجم ، وما ذكرت فيه من الكفر ، فكنت أستمتع منه بالأدب وأترك ما سوى ذلك ، ووجدته محلىً ، فلم تضطرنى الحاجة إلى أخذ الحلية منه ، فتركته على حاله ، ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك فى منزلك ، فما ظننت أن هذا يخرج عن الإسلام .

ثم تقدم الموبذ ، فقال : إن هذا كان يأكل المخنوقة ، ويحملنى على أكلها ، ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة ، وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشى بين نصفيها ، ويأكل لحمها ، وقال لى يوماً : إنى قد دخلت

---

(١) الموبذ : هو فقيه المجوس .

(٢) أماكن بسمرقند .

لهؤلاء القوم فى كل شىء أكرهه ، حتى أكلت الزيت وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير أنى إلى هذه الغاية لم تسقط منى شعرة « كناية عن أنه لم يختتن » .

فقال الأفشين : أخبرنى عن هذا الذى يتكلم بهذا الكلام ، أثقة هو فى دينه ؟ « وكان الموبذ ما زال على مجوسيته ، ولم يسلم إلا فى عهد المتوكل » ،

قالوا : لا . . .

قال الأفشين : فما معنى قبولكم شهادة من لاتثقون به ولا تعدلونه .

ثم أقبل على الموبذ فقال له : أكان بين منزلى ومنزلك باب أو كوة تتطلع على منها وتعرف أخبارى ؟ قال : لا . قال : أفليس كنت أدخالك منزلى وأبثك سرى وأخبرك بالأعجمية ميلى إليها وإلى أهلها ؟ قال : نعم . قال : فلست بالثقة فى دينك ، ولا بالكريم فى عهدك ، إذ أفشيت على سراً أسررته إليك .

ثم تنحى الموبذ ، وتقدم « المرزبان بن تركش » .

فقالوا للأفشين : هل تعرف هذا ؟

فقال الأفشين : لا . . فقيل للمرزبان : أتعرف هذا ؟ قال : نعم . . هذا الأفشين ، قالوا له : هذا المرزبان !

قال المرزبان له : يا مخرق كيف تدافع عن نفسك وتموه ؟

قال الأفشين : يا طويل اللحية ما تقول ؟

فقال المرزبان : كيف يكتب إليك أهل مملكتك ؟

قال الأفشين : كما كانوا يكتبون إلى أبى وجدى .

قال المرزبان : فقل . . .

قال الأفشين : لا أقول . . .

فقال المرزبان : أليسوا يكتبون إليك بكذا وكذا (بالأشروسينية) ؟

قال الأفشين : بلى ! . . .

قال المرزبان : أفليس تفسيره بالعربية إلى الإله من عبده فلان ابن فلان ؟ ! . . .

قال الأفشين : بلى . . .

قال محمد بن عبد الملك : والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا ، فماذا أبقيت لفرعون حين قال أنا ربكم الأعلى !

قال الأفشين : كانت هذه عادة القوم لأبي وجدى ، ولى قبل أن أدخل الإسلام ، فكرهت أن أضع نفسى دونهم ، فتفسد على طاعتهم .

فقال له إسحاق بن إبراهيم بن مصعب من الحاضرين : يا حيدر ، كيف تحلف بالله لنا فنصدقك ، ونصدق يمينك ، ونجريك مجرى المسلمين ، وأنت تدعى ما ادعى فرعون .

ثم تقدم مازيار صاحب طبرستان .

فقالوا للأفشين : أتعرف هذا ؟

قال : لا ، فقالوا للمازيار : تعرف هذا . . . قال : نعم هذا الأفشين ؛ قالوا : هذا المازيار .

قال : قد عرفته الآن . . .

قالوا : هل كاتبته ؟

قال : لا . . . .

قالوا : للمازيار هل كتب إليك ؟

قال المازيار : نعم كتب أخوه خاشن إلى أخى قوهيار ؛ إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك وغير بابك . فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فأبى حتفه إلا أن دلاه فيما وقع فيه ، فإن خالفت فلم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس ، فإذا وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك ، والعربى بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة ، ثم اضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذئاب يعنى (المغاربة) إنما هم أكلة رأس . وأولاد الشياطين ، يعنى « الأتراك » ، إنما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ، ثم تجول الخيل عليهم جولة ، فتأتى على آخرهم . ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه العجم .

فقال الأفشين : هذا يدعى على أخيه وعلى أخى دعوى لا تجب على ، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لأستميله ويثق بناحيتى كان غير مستنكر ، لأنى إذا نصرت الخليفة بيدى كنت بالحيلة أحرى أن أنصره ، لآخذ بقفاه وآتى به إلى الخليفة لأحظى به عنده كما حظى عبد الله بن طاهر عند الخليفة .

ثم نحى « المازيار » .

ولما قال الأفشين للمرزبان التركشى ما قال ، وقال إسحق بن إبراهيم ما قال — زجر ابن بى دؤاد الأفشين ، فقال هذا : يا أبا عبدالله ترفع طيلسانك بيدك فلا تضعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة .

فقال ابن أبى دؤاد : أمطهر — أى مختتن — أنت .

فقال الأفشين : لا .

فقال ابن أبى دؤاد : فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام .

فقال الأفشين : أليس فى دين الإسلام استعمال التقية ؟

قال ابن أبى دؤاد : بلى .

قال الأفشين : خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدى فأموت .

قال : أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف فلا يمنعك ذلك من أن تكون فى الحرب وتجزع من قطع قلفة .

قال الأفشين : تلك ضرورة تعنينى فأصبر عليها إذا وقعت ، وهذا شىء أستجلبه فلا آمن معه خروج نفسى ، ولم أعلم أن فى تركها الخروج على الإسلام .

قال ابن أبى دؤاد : قد بان حكم أمره ، ثم أمر به فحبس .

١٨٨ — هذه قصة محاكمة الأفشين ومناظرته ، وهى تصور كيف وقف المعتزلة ، محاسبين كل من يتهم بالزيغ والضلال ، وتصور لنا حال العصر من دخول قوم فى الإسلام ظاهراً ، وهم يضمرون غيره باطناً ، وإن صحت التهم التى نسبت إلى (الأفشين) فإن هذا يدل على أن أولئك الذين فى قلوبهم مرض ، منهم من وصل إلى مرتبة القيادة والقوة .

ما تدل عليه المحاكمة :

وإن ما تدل عليه المحاكمة بالنسبة لما نسب إلى الأفشين ينتهى بنا إلى ثلاثة أمور :

أولها — أنه مما لاشك فيه أن الأفشين لم يدخل الإيمان قلبه وأنه كان جندياً فيه بطولة وقوة ، وأنه لا يؤمن بالأوثان كما لا يؤمن بالله ، ولذا لم تكن همته إلا أن يصل إلى أعلى مراتب الدولة ، ولذلك لما عهد إليه قتل بابك الخرمى لم يتلكأ ولم يتردد حتى قضى عليه لتكون له بذلك الزلفى لدى الخليفة .

ثانيهما — أن الذين كان يهمهم أن ينتصر بابك الخرمى غاظهم صنيع الأفشين فوشوا به وكشفوا أمره ، وهذا يفسر لنا أن الشهود جميعاً كانوا من الباقين على دينهم الوثنى ، لأنه لابد أن يتساءل القارىء : لماذا يتقدم هؤلاء إلى الشهادة عليه ، وهم يتمسكون بدينهم الذى يخالف الإسلام والذى عليه الأفشين فى الظاهر ، كما يظهر من كلامهم .

الأمر الثالث — الذى تدل عليه المحاكمة هو أن « الأفشين » كان يحنق على العرب ، وكان قاسياً عنيفاً غليظاً وإلا ما عاقب المؤذن والإمام ذلك العقاب القاسى الغليظ الذى لا يصدر إلا عن رجل تجرد من الإنسانية والإيمان .

خلق القـــرآن

١٨٩ — اقترنت مسألة خلق القرآن بتاريخ المعتزلة ، فما ذكروا إلا سبقت إلى الذهن تلك المسألة ، لأنهم الذين أثاروها فى العصر العباسى ، وبرأيهم حاول الخليفة العباسى حمل الفقهاء والمحدثين على القول بها ، ونزل ببعض أولئك الفقهاء ما نزل من شدائد ، وقد شغلت أفكار الناس فى عصور ثلاثة من خلفاء بنى عباس : المأمون ، والمعتصم ، والواثق . اضطربت فيها النفوس والعقول وأزهقت فيها حرية العقيدة ، وأوذى المتورعون فى ألفاظهم ، والمتوقفون فى علمهم ، عند حدود النص إيذاء شديداً ، ولا ذنب لهم فى ذلك إلا العكوف على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، خشية أن يضلوا فى نزعات الفكر وزيغ العقول .

وهذه المسألة أسبق فى الوجود من عصر الخلفاء الثلاثة الذين ذكرناهم ، فقد قالها الجعد بن درهم ، وقتله خالد بن عبد الله القسرى والى الكوفة لهذه المقالة . وقال مثل هذه المقالة الجهم بن صفوان ، فقد نفى صفة الكلام كما ذكرنا عند الكلام فى الجبرية ، وكان هذا النفى تنزيهاً لله سبحانه وتعالى عن مشابهة الحوادث فى زعمهم ، وحكم بسبب ذلك بأن القرآن مخلوق له سبحانه وليس بقديم .

١٩٠ — ولقد جاء المعتزلة من بعد ذلك ، ونفوا عن الله تعالى صفات المعانى ، وهى القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، وغيرها من الصفات المذكورة فى القرآن ، وأولوا ما ذكر فى القرآن على أنه أسماء للذات العلية ، وليس وصفاً لها .

وبنفيهم صفة الكلام فى ضمن ما نفوا أنكروا أن يكون الله تعالى متكلما وما ورد

فى القرآن الكريم من إسناد الكلام إليه سبحانه فى مثل قوله تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) ، أولوه بأن الله تعالى خلق الكلام فى الشجرة ، كما يخلق كل شيء .

وعلى هذا بنوا قولهم : إن الكلام مخلوق لله سبحانه وتعالى ، وأن القرآن مخلوق لله سبحانه وتعالى ، وخاضوا فى هذه المسألة فى العصر العباسى خوضاً شديداً ، وشاركهم فى خوضهم بعض قليل من الفقهاء ، فقد كان بشر بن غياث المريسى على كبر محله فى الفقه من المصرين على القول بأن القرآن مخلوق ، وقد نهاه أبو يوسف شيخه وتلميذ أبى حنيفة ، فلم ينته ، فطرده من مجلسه .

وكان ابتداء الخوض الشديد فى عهد الرشيد ، ولم يكن ممن يشجعون الخوض فى العقائد ، والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة ، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين فى العقائد ومنهم المعتزلة ، ولذا لم يشجع الكلام فى شأن القرآن : أهو مخلوق أم غير مخلوق ، ولما بلغته مقالة (بشر بن غياث المريسى) فى القرآن قال : لئن أظفرنى الله به لأقتلنه . فظل بشر مختفياً طوال خلافة الرشيد .

١٩١ — ولما جاء المأمون وأحاط به المعتزلة وجعل جل حاشيته منهم ، وأكرمهم أبلغ الإكرام ، حتى أنه يروى أنه كان إذا دخل عليه أبو هشام الفوطى ، من المعتزلة تحرك له حتى يكاد يقوم ، ولم يكن يفعل ذلك مع أحد من الناس ، والسبب فى هذا أن المأمون كان تلميذاً لأبى الهذيل العلاف فى الأديان والمقالات ، وهو من أئمة المعتزلة ، فكان المأمون بهذه التلمذة وباستمراره على الاشتغال بالعلم مدة خلافته يعد معتزلياً .

ولقد كان يعقد المجالس للمناظرات فى المقالات والنحل ، وكان فرسان هذا السباق المعتزلة ، وكانوا السابقين فى حلبتها لما عنوا به من دراسات عقلية واسعة .

وقد أحس المعتزلة بمنزلتهم فى نفسه ، وخصوصاً لما اختار خاصته منهم ، واختص أحمد بن أبى دؤاد بالقربى حتى أنه عندما حضرته الوفاة أوصى به أخاه المعتصم وقال له فى وصيته : وأبو عبد الله بن أبى دؤاد فلا يفارقك ، وأشركه فى كل أمرك ، فإنه موضع لذلك منك .

وبذلك الاتصال العقلى بينه وبينهم والقرب منه فى خاصة أموره وعامتها استطاعوا أن يزينوا له إعلان القول بخلق القرآن فأعلن ذلك سنة ٢١٢ من الهجرة النبوية ،

وناظر فى هذا الشأن من يغشى مجلس مناظراته ، وأدلى فيها بحجته وأدلته، ولكنه مع ذلك ترك الناس أحراراً فى عقائدهم وآرائهم ، فلم يحملهم على رأى لم يروه ، ولا على فكرة لا يستسيغون الخوض فيها .

ولكن فى سنة ٢١٨ هـ وهى السنة التى توفى فيها بدا له بوسوسة أهل الاعتزال أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق القول بخلق القرآن . بل أراد أن يحملهم على ذلك قهراً وغلبة . وابتدأ ذلك بإرسال كتبه ، وهو بالرقة إلى إسحاق بن إبراهيم نائبه فى بغداد ، بامتحان الفقهاء والمحدثين ليحملهم على القول بخلق القرآن ، وابتدأ بحمل الذين لهم شأن فى مناصب الدولة أو لهم صلة بالحكام أو الأحكام ، ولو كانوا شهوداً فى نزاع قد رفع أمره إلى القضاء فقد جاء فى آخر كتابه الأول إلى إسحاق بن إبراهيم: أجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فابدأ بامتحانهم وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ،ولا واثق فيمن قلده واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه ، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم فى القرآن وترك شهادة من لم يقر أن القرآن مخلوق محدث ، ولم يره ،والامتناع عن توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مثل ذلك والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم ، وتفقد آثارهم ، حتى لا تنفذ أحكام الله تعالى إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين والإخلاص للتوحيد.

ونرى من هذا أنه لم يضع عقوبة لمن لم يقل ذلك القول سوى الحرمان من مناصب الدولة ، وعدم سماع شهادته إن كان شاهدا ، وفى الكتاب الثانى أضاف إلى ذوى المناصب فى الدولة والمتصلين بها — المحدثين والفقهاء — وكل من تصدى للفتوى والتعليم والإرشاد ، فأمر بامتحانهم وإرسال إجابتهم عن مسألة خلق القرآن .

وقد أرسل إسحاق بن إبراهيم إجابتهم ، وكثير منها كان بالتوقف والامتناع عن الجزم فى القضية :

١٩٢ — وقد جاء الكتاب الثالث ، وفيه العنف البين ، فقد سخف إجابات المتوقفين وجرحهم ، وسلقهم بقارص القول ، ولم يكتف بذلك، بل قرر العقوبات الصارمة ، وجاء فى هذا الكتاب : (ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين

فى كتابك وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا . . فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم حتى يؤدى إلى عسكر أمير المؤمنين ويسلمهم إلى من يؤمن تسليمهم إليه لينصبهم أمير المؤمنين . فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله) .

ونرى من هذا كيف ترقى من عقوبة الحرمان إلى الإنذار بعقوبة الإعدام .

وقد سارع إسحاق بن إبراهيم إلى تنفيذ طلبه من غير مراجعة ، فأحضر الفقهاء والمحدثين والمفتين ، وأنذرهم بالعقوبة الصارمة إن لم يقروا بما يطلب منهم ، وينطقوا بما سئلوا أن ينطقوا به ، ويحكموا بالحكم الذى ارتآه المأمون من غير تردد ولا مراجعة ، فنطقوا جميعاً بما طلب وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب .

ولكن أربعة ربط الله على قلوبهم ، واطمأنوا إلى حكم الله فى أمرهم ، فأصروا على موقفهم إصراراً جريئاً ، وهم أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والقواويرى ، وسجادة ، فشدوا فى الوثاق ، وكبلوا بالحديد وباتوا ليلتهم مصفدين فى الأغلال ، فلما كانوا فى الغد أجاب أحدهم وهو سجادة ما يدعون إليه ، فحاوا عنه وأطلقوه من قيوده واستمر الباقون على حالهم .

وفى اليوم التالى أعيد السؤال عليهم ، وطلب الجواب إليهم فخارت نفس القواويرى وأجابهم إلى ما طلبوا ففكوا قيوده ، وبقى اثنان ، الله معهما فسيقا فى الحديد ليلتقيا بالمأمون فى طرطوس وقد استشهد ابن نوح فى الطريق .

والذين أجابوا طلب إليهم أن يواجهوا المأمون أحراراً ، وقدموا كفلاء بأنفسهم ليوافوه بطرسوس .

١٩٣ — وبينما هم فى الطريق نعى الناعى (المأمون) ولكنه عفا الله عنه لم يودع هذه الدنيا حتى وجدت وصية يوصى وفيها أخاه المعتصم بالتمسك بمذهبه فى القرآن ، ودعوة الناس إليه بقوة السلطان ، وكأنه فهم أن تلك الفكرة التى استحوذت عليه دين واجب الاتباع ، وفرض لا يبرأ منه حتى يؤديه ويدعو إليه ويحمل الناس بفضل القوة عليه . وقد جاء فى هذه الوصية : يا أبا اسحاق ادن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى خلق القرآن .

ولهذه الوصية لم تنقطع المحنة بوفاة المأمون ، بل اتسع نطاقها ، وزادت ويلاتها ، وكانت شرا مستطيرا على المتوقفين من الزهاد والعلماء والمتفقهين والمحدثين وأهل الفتيا فى الدين .

١٩٤ — وقد استمر فى البلاء أحمد بن حنبل ومزق جسمه بالسياط وهو راض بالبلاء غير مستهين بعقيدته ، واستمر فى الحبس نحو ثمانية عشر شهراً حتى استيئسوا منه ، وعلموا أنه لا يجيب . .

ثم أطلق سراحه فعاد إلى ما كان عليه من الإفتاء والتحدث إلى أن مات (المعتصم) .

ولما آل الأمر إلى الواثق سار على سنة أبيه وعمه فى هذه المسألة ، وأنزل المحنة بمن لا يراها ، ولكنه لم يرد أن ينزل (بأحمد) أكثر مما نزل ، فنفاه ومنعه من الفتيا ، وقال له : (لا تجمعن إليك أحداً ، ولا تساكنى فى بلد أنا فيه) . فأقام « الإمام » مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات . .

١٩٥ — ولم تكن الفتنة فى عهد الواثق مقصورة على الإمام أحمد بل تجاوزته إلى غيره ، فقد كان فقهاء الأمصار يساقون إلى بغداد ليختبروا فى هذه المسألة ، ويفتش عن خبايا قلوبهم .

وممن نزل به ذلك يوسف بن يحيى البويطى الفقيه المصرى صاحب الإمام الشافعى ، فقد دعى إلى القول بما يقولون ، فامتنع فحمل مقيداً مغلولا حتى مات فى أصفاده محتسباً ذلك عند ربه .

ومنهم نعيم بن حماد فقد مات فى سجن الواثق مقيداً .

ومنهم أحمد بن نصر الخزاعى قتله الواثق وصلبه لامتناعه عن الخوض فيما يخوضون فيه . وقد قيل : إن ثمامة بن أشرس المعتزلى هو الذى سعى به إليه ، ويروى أن الواثق ندم على قتله ، وعاتب ثمامة وكل من أشار عليه بقتله .

١٩٦ — فى هذه الفتنة الصماء التى خفت فيها صوت الحكمة ، وفى هذه الشدة التى سكت فيها صوت الرحمة عاش العلماء سنين . وكان التورع عن الخوض إثماً كبيراً لا يعذر فيه مؤمن ، لسابق عمل أو صلاح ، أو حسن سيرة أو احترام الناس له ، وقد تفاقم الخطب ، واستمرت البلوى حتى سئم الناس هذه الحال ، بل حتى سئمها القائمون بها ، وحتى صارت هزلا لدى بعض الناس ، فإنه يروى أنه دخل على (الواثق) مضحك له اسمه عبادة فقال : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن ،

فقال الواثق : ويلك القرآن يموت ؟ . . . قال : يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت ، بالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح إذا مات القرآن . فضحك « الواثق » . وقال : قاتلك الله ، أمسك ! . .

ويرى الدميرى فى كتابه (حياة الحيوان) أن الواثق رجع فى آخر حياته عن إنزال المحنة بمن لا يرى هذا الرأى ، إذ دخل عليه شيخ ممن نزلت بهم المحنة ، فقال لأحمد ابن أبى دؤاد الذى تولى هذه المحاكمة : شىء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على تدعو أنت الناس إليه ، ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه ، فإن قلت علموه وسكتوا عنه وسعنى وإياك من السكوت ما وسع القوم ، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت ، فيالكع بن لكع يجهل النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم شيئاً تعلمه أنت ، فلما سمع الواثق ذلك وثب من مجلسه وأخذ يردد تلك الكلمات ، وعفا عن الشيخ ، ورجع عما كان يفعل كما روى عنه ابنه « المهتدى » .

موضع الخلاف فى هذه المسألة :

١٩٧ — كان الخلاف فى هذه المسألة بين المعتزلة من جانب ، والفقهاء والمحدثين من جانب آخر ، ولا يصح أن تنسينا لجاجة العنف — الموضوع فى ذاته ، وموضع الخلاف ، ولعل رأى الإمام أحمد رضى الله عنه هو الذى يتفق مع رأى الفقهاء والمحدثين ، وهو الذى يصوره ، فبيانه بيان لهم فى الجملة .

وقبل أن نبين رأى الإمام أحمد ووجهة نظر المعتزلة فى عنفهم نقرر أن العلماء الذين يوزن لهم رأى ومنهم الإمام أحمد بن حنبل قد اتفقوا على أن تلاوة القرآن محدثة ، فالنطق بحروفه محدث ؛ لأنه وصف للقارىء أو عمل من أعماله ، وأعماله محدثة لا شك فى ذلك ، وكذلك قد اتفقوا على أن الحروف المصورة بالمداد فى المصاحف محدثة بلا شك ، وقد قالوا أن القرآن الكريم ينظر إليه نظرين : أحدهما إلى مصدره ، وهو أن الله تعالى متصف بالكلام وأن هذا القرآن الكريم كلامه سبحانه وتعالى ، والنظر الثانى هو النظر إلى هذه الحروف وتلك الكلمات المكونة منها ، والمعانى التى تدل عليها الكلمات والتى تفهم من العبارات ، وهذان النظران هما محز الخلاف .

فأما الأول : فقد نفى المعتزلة صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى ، لأنها من صفات الحوادث ، وما أسند إليه من أنه تكلم فلأنه خلق الكلام فى الموضع الذى صدر عنه الكلام فكلامه لموسى بخلقه الكلام فى الشجرة . وغير المعتزلة من الفقهاء والمحدثين أثبتوا صفة الكلام لله تعالى ، وبناء على ذلك يكون القرآن كلام الله على رأى الفقهاء والمحدثين . فيكون غير مخلوق كسائر المخلوقات ، وقال المعتزلة : هو كلام خلقه الله سبحانه وتعالى ، وأنزله بالوحى الأمين على محمد خاتم النبيين .

وبالنسبة للنظر الثانى وهو الحروف التى تقرأ ، والمعانى التى تفهم فهنا المعتزلة على طريقتهم يقولون : مخلوقة لله تعالى ، والإمام أحمد ومن ورائه أهل السنة يقولون أنها غير مخلوقة لله تعالى : لأنها مظهر لكلامه سبحانه ، ولكن هل هى قديمة بقدم الذات العلية ؟

وإن المستقرىء لكلام الإمام أحمد يرى أنه كان يتوقف أولا ، ثم جهر برأيه ؛ فقد روى عنه أنه قال : (من زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمى ، ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع) فهو يرى أن من البدعة الخوض فى هذاه المواضع .

ولكن لما عمت البلوى صرح برأيه ، وهو أن ألفاظ القرآن ومعانيه غير مخلوقة ، وقد صرح بذلك فى رسالته التى كتبها إلى المتوكل فقد جاء فيها « لقد روى غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو الذى أذهب إليه ، ولا أرى الكلام فى شىء من هذا ، إلا ما كان فى كتاب الله ، أو فى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أوعن أصحابه أو عن التابعين فإن الكلام فيه غير محمود » .

وننتهى من هذا إلى أن الإمام أحمد بعد التوقف أمداً قرر أن القرآن غير مخلوق . ولكن مع قوله هذا لم يعرف عنه قط أنه قال أنه قديم ، بل استمر فى هذه القضية على توقفه ؛ لأنها مسألة من صميم علم الكلام ، وهو لم يكن صاحب كلام .

١٩٨ — وبعد هذا الاستقراء نكون قد بينا الرأى الذى كان يناقض رأى المعتزلة الذى حاربوه ، وقد بينا رأى المعتزلة . والمنهاج الذى رسموه لأنفسهم فهم يرون أن القرآن مخلوق ، وأنه محدث غير قديم .

ذانك نظران ، كل منهما له وجهته ولا يكفر أحدهما ، ولكن لماذا انتقل المعتزلة عندما صار لهم سلطان ، من المناقشة إلى التهديد والأذى ، وهم أهل نظر

وجدل ؟ . . . لندع المأمون والمعتصم والواثق فأولئك كانوا مظاهر ، والرأى رأى المعتزلة بل إن الكتب والوصايا كلها كانت بقلم أحمد بن أبى دؤاد ولعله استغل ضعف المأمون فى مرضه الذى مات فيه ، وكتب ما كتب ، وأمر باسمه بما أمر بدليل أن الاضطهاد والكتب المشتملة عليه كانت كلها والمأمون خارج بغداد وقد كانت وهو مريض .

ولذلك نجعل موضع السؤال المعتزلة أنفسهم ؛ ونلتمس لهم الأعذار ، أو نقول أن لهم أعذاراً قد تخفف اللوم ، ولكن لا يمكن أن تكون مبرراً للأذى والاضطهاد فإنهما أمران لا يسوغان بالنسبة للأتقياء أمثال أحمد بن حنبل .

وإن الأعذار التى نراها مختلقة لإثم المعتزلة أو مزيلة بعض اللوم هى أن قول أهل السنة أن القرآن غير مخلوق وأنه كلام الله قد يؤدى إلى القول بقدمه ، وأن ذلك قد كان يتخذه النصارى حجة أو ذريعة للتشكيك ولحمل المسلمين على اعتقاد أن المسيح إله أو قديم قدم الإله . وقد كانوا يبثون ذلك بين جماهير المسلمين ، فقد جاء فى كتاب تراث الإسلام عن يوحنا الدمشقى الذى كان فى خدمة الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملك أنه كان يلقن بعض المسيحيين ما يجادلون به المسلمين ليفسدوا اعتقادهم . فيقول : إذا سألك العربى : ما تقول فى المسيح ؟ . فقل إنه كلمة الله . ثم ليسأل النصرانى المسلم : بم سمى المسيح فى القرآن ، وليرفض أن يتكلم بشىء حتى يجيبه المسلم فإنه سيضطر إلى أن يقول : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » فليسأله عن كلمة الله وروحه أمخلوقة هى أم غير مخلوقة فإن قال مخلوقة فليرد عليه أن الله كان ولم تكن كلمة ولا روح . فإن قلت ذلك فسيفحم العربى لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين .

١٩٩ — هذا الكلام كان يبث بين المسلمين ، ولم يكن خافياً فى جوهره عن أعين المعتزلة الذين كانوا يجادلون أهل الديانات الأخرى والزنادقة ، وهم لهذا يعلمون أن من يقول : القرآن غير مخلوق قد يؤديه إلى أن يقول أنه قديم ، وبذلك يمد النصارى بحجة يجادلون بها ، فوجب ألا يقال هذا القول حتى لا يكون حجة على الإسلام ، ولكيلا يفتح ثغرة لمن ينالون منه ، والمعتزلة مع ذلك يعتقدون أن الحق الذى لا شك فيه هو ما يقررون . ومن قال مقالة المحدثين فقوله يؤدى إلى ما يضاهى قول النصارى فى المسيح ، وإلى الحكم بتعدد القدماء ، وجعل القرآن الذى يقرؤه الناس قديماً كشأن الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان ذلك بعض نظر

المعتزلة فهو موقف لا يخلو من الغيرة الإسلامية ، والدافع إليها إيمان سليم .

فإذا كان أحمد بن حنبل وإخوانه من الفقهاء والمحدثين يحتاطون لدينهم فالمعتزلة أيضاً يحتاطون لدينهم فيسدون الأبواب بالحق على كل من يريد كيداً بالإسلام ، ولم يكونوا بذلك خارجين عن الدين . نعم كان الأولى ألا يخاض فى هذه المسألة قط كما كان يريد الإمام أحمد ومن معه ، ولكن الذين لا يريدون بالإسلام خيراً أذاعوا به ونشروه فحق على كل مسلم أن يدافع عن الإسلام ، ويذكر الحقيقة كما هى ، ويدعو إليها .

٢٠٠ — ولقد صرح المعتزلة بذلك فى الكتب التى أرسلت على لسان المأمون وساقوا فيها الأدلة لبطلان قول من قالوا أن القرآن قديم بالمشابهة بين قولهم وزعم النصارى بالنسبة للمسيح عليه السلام ، فقد جاء فى أحد هذه الكتب : « وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم فى عيسى ابن مريم أنه ليس بمخلوق. إذ كان كلمة الله » وإن هذا القول يدل على أنهم كانوا يلاحظون ما يمكن أن يستخدمه النصارى من نص القرآن بأن « المسيح » ، (كلمته) ولعله مما جال بخاطر أولئك المعتزلة أن ترويج فكرة قدم القرآن أو القول بعدم خلقه التى تؤدى إلى القول بالقدم باعتباره كلام الله تعالى فكرة مسيحية ، دست بين جماهير المسلمين فيما كان يدس فيهم من أفكار ، وقد تلقاها الجمهور بالقبول ، لما فيها من تقديس للقرآن الكريم ، وقد ذكرنا أن النصارى قد استخدموا فعلا فكرة الامتناع عن الخوض فى كون كلام الله قديماً أو حديثاً لإفحام المسلم ، فلا يناقش فى كون « المسيح » قديماً ، وله مقام الألوهية عندهم . ولقد أشار الجاحظ فى رسالته التى تسمى (النصارى) ، وهو معتزلى ، إلى أن الكائدين للإسلام يرتضون القول بعدم خلق القرآن ، بمقالة الفقهاء والمحدثين ، ويتمنون أن تروج عند العامة الذين يسيرون وراء أولئك المحدثين .

٢٠١ — وإنه لو استبعدنا علاقة الدس الذى كان يدسه أمثال يوحنا الدمشقى بموضوع الاضطهاد لوجدنا الكتب صريحة فى أن القول يؤدى إلى ما يقول النصارى ؛ فقد صرحوا بأن القول بقدم القرآن يؤدى إلى القول بتعدد الآلهة ، وذلك لأن النصارى سلكوا ذلك المسلك فادعوا قدم « المسيح » ثم عبدوه ، واتخذوه إلهاً ، ولقد خشى المعتزلة فشو ذلك عند العامة وقبول حشو الأمة له ، وبهذا يجىء جيل يعبد

القرآن كما جاء جيل عبد المسيح عليه السلام ، وخصوصاً أنهم يرون ما رأوا من ثقة الناس بالمحدثين والفقهاء الذين قالوا ذلك القول ويتوقعون ما يفضى إليه .

٢٠٢ — هذا ما نظنه مبرراً يخفف الملام عما ارتكب المعتزلة وإن كان لا يذهب بأصل الملام ، ولكن هل أنتج الاضطهاد ما أراد المعتزلة ، ومن تحملوا وزره معهم ؟ . . .

لقد أدى الأمر إلى تكبير المضطهدين ، ونشر تفكيرهم ، ومبالغة الناس فى أقوالهم ، ولم يكن ما يسوغ الاضطهاد ، فقد كان ابن حنبل يمتنع عن القول بأن الحروف والكلمات التى ننطق بها قديمة ، وامتنع أحمد ومن وراءه عن هذا القول .

نعم إن المسألة محصت ودرست بعد ذلك من الأخلاف ، ورأى الكثيرون من مفكرى الإسلام رأى المعتزلة ، ولكن لم يكن ذلك نتيجة للاضطهاد ، بل كان نتيجة لمناظرات العلماء وما نشره المعتزلة من رسائل . ولو ترك الأمر على رسله من غير اضطهاد لانتشرت فكرة المعتزلة أكثر مما انتشرت وما لوث تاريخهم بذلك الاضطهاد .

٢٠٣ — هذه صفحات من تفكير المعتزلة وآرائهم ودراساتهم ومجادلاتهم وإنها يبدو منها ثلاثة أمور واضحة بينة :

أولها : أن هؤلاء يعدون فلاسفة الإسلام حقاً ، لأنهم درسوا العقائد الإسلامية دراسة عقلية مقيدين أنفسهم بالحقائق الإسلامية غير منطلقين فى غير ظلها ، فهم يفهمون نصوص القرآن فى العقائد فهماً فلسفياً ويغوصون فى فهم الحقائق التى تدل عليها ، غير خالعين للشريعة ، ولا متحللين من النصوص .

ثانيها : أنهم قاموا بحق الإسلام من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورد كيد الزنادقة والملاحدة والكفار فى نحورهم ، وكان لابد من وجودهم ليوقفوا تيار الزندقة الذى طم فى أول ظهور الدولة العباسية ، ولذا كان الخلفاء الأول من هذه الدولة يشجعونهم ، وقد ناوأهم الرشيد زماناً واعتقل بعضهم ، ولكنه اضطر لإطلاقهم لما علم أنهم الذين يستطيعون منازلة الوثنيين من السمنية وغيرهم .

ثالثها : أن لهم شذوذاً فى الفكر ، وشذوذاً فى الفعل ، وذلك يحدث كثيراً ممن يطلق لعقله العنان ، ولو فى ظلال النصوص ،